دراسة مجموعة القصص "الباب المفتوح" لعبد الرحمن منيف

الدكتور ك. م. ع. أحمد زبير [١]

الملخص

يعد عبد الرحمن منيف من أهم كتّاب العرب في القصة القصيرة العربية في القرن العشرين. حيث استطاع في قصصه أن يعكس الواقع الاجتماعي والسياسي العربي. ويعتبر منيف من أنشط المفكرين لأنظمة كثيرة من الدول العربية. ألف مجموعة من القصص قسمها إلى مجموعتين وصدرت فيما بعد في كتابين منفصلين هما: "أسماء مستعارة" و"الباب المفتوح". وكانت هذه القصص تعيش في عقله ووجدانه. وقد تعود بذورها لحوادث رآها بنفسه والأشخاص عرفهم وعايشهم وتركت لديه ذلك الخدش الموجع. وهذه المقالة تسلط الأضواء على تحليل ومجموعة قصصه "الباب المفتوح" بالتفصيل.

الكلمات المفتاحية: عبد الرحمن منيف، القصة العربية القصيرة، الباب المفتوح، الأدب السعودي.

المقدمة

قد حظيت القصة السعودية باهتمام كبير لدى المجتمعات المثقفة في كافة أنحاء العالم. وتحولت في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين إلى أداة فنية للوعي بمصير الإنسان ونفسياته وسلوكياته، والواقع اليومي الذي يعيشه المجتمع، والقضايا والتحولات التي تحدث في حياة الفرد والجماعة.

وفي قرني التاسع عشر والعشرين ظهر عدد كبير من الكتاب البارزين ذوي

---

١ الأستاذ المشارك في القسم العربي، الكلية الجديدة، تشيناي، تامل نادو

المواهب والقدرات الإبداعية الرائعة، فقدموا أعمالا مميزة على الأصول الفنية الحديثة، لا تقلّ قيمتها وأهميتها عن الأعمال الجيدة في باقي الأقطار العربية، وتقدم صورة صادقة للمجتمع السعودي وطموحاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما تقدم هموم الشعب وصراعاته ومشاكله وأحلامه وأشواقه ودواخله النفسية.

فقد كانت القصة بالنسبة إليه، في أواخر عقد الستينيات ملاذاً رومنسياً للتعبير عن واقع عربي مضطرب وعن غربة قسرية كان يعيشها المنيف خصوصاً بعد فقدان أمله بتغيير الأوضاع العربية، إثر هزيمة حزيران في العام.١٩٦٧م، وحتى حين نشر روايته الأولى "الأشجار واغتيال مرزوق" في مطلع السبعينيات من القرن العشرين، لم تكن هي الرواية الأولى التي يكتبها، إذ كان قد أنجز رواية "قصة حب مجوسية"، ونتيجة لقلقه السياسي والأيديولوجي، آثر أن يؤجل نشر هذه الرواية، ويقدم نفسه للقراء بعمل يليق بتاريخه النضالي فكانت "الأشجار واغتيال مرزوق".[١]

ترك الراحل مخطوطات ورسائل وكتابات لم تنشر، وها هي رفيقة دربه سعاد منيف، تكشف عن وجود قصص لم تنشر للكاتب الراحل، وقد جمعتها تحت عنوان "الباب المفتوح"، وتضم عشر قصص، يغلب عليها طابع رومانسي ورؤية

1

https://aljaml.com/%D9%82%D8%B5%D8%B5%20%D9%85%D8%AC%D9[1]%87%D9%88%D9%84%D8%A9%20%D9%84%D8%B9%D8%A8%D8%AF%20%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AD%D9%85%D9%86%20%D9%85%D9%86%D9%8A%D9%81 retrieved on 03/08/2022

كاريكاتيرية لخريطة عربية مضطربة. وتشير منيف في مقدمتها للمجموعة "المؤسسة العربية للدراسات والنشر"، إن هذه القصص تعبر عن مرحلة تجريدية خاضها الكاتب في امتحان أوّلي لممارسة الكتابة، حتى أن معظمها كتب قبل أي عمل روائي، في وقت كان مغرماً بقراءة القصة القصيرة.

وقد قسم هذه القصص إلى مجموعتين، اختار للأولى اسم "أسماء مستعارة"، وللثانية "الباب المفتوح"، وكان ينوي كتابة مقدمة لهذه القصص، يعلل فيها سبب لجوئه إلى كتابة القصة، لكن القدر لم يمهله.

نُشر هذا الكتاب بعد رحيل (عبد الرحمن منيف)، وصدر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر قبل أشهرٍ قليلة. ولأول مرة يتعرف القارئ العربي على (منيف) في القصة القصيرة لا الرواية. وكما تقول (منيف) في مقدمة الكتاب: "كُتبت هذه القصص بين عامي ١٩٦٩-١٩٧٠م، والتي كانت مرحلة تجريبية في حياة الكاتب عبد الرحمن منيف وامتحانٍ أولي لممارسة الكتابة. وكالعادة لا تجد (منيف) في تقنية سردية أو أسلوب قصصي واحد، فهو يهوى التجريب واكتشاف المقاربات الممكنة للأدب.[1]

الدكتورعبد الرحمن منيف

الدكتور عبد الرحمن منيف من أبرز المفكرين والأدباء العرب وهو من أهم الكتاب العرب في القرن العشرين. ذكر في قصصه عن الحوادث الواقعة الاجتماعية الحديثة والسياسية العربية تتعلق بأحوال جزيرة العرب تعتبر منيف من أشد المفكرين.

1 http://morethan1life.blogspot.com/2006/08/blog-post.html?m=1 retrieved on 03/08/2022

ولد عبد الرحمن منيف في سنة ١٩٣٣م، لأب من نجد وأم عراقية. قضى المراحل الأولى مع العائلة المتنقلّة بين دمشق وعمان وبعض المدن السعودية.

ولم يكتب عبد الرحمن منيف إلا مجموعتين قصصيتين، وربما كانت هاتان المجموعتان مرحلة تجريبية في حياة الكاتب، إلا أنهما لم تصدرا إلا متأخرا على الرغم من كونهما البدايات الأولى في حياته الأدبية، وهما:

١. "أسماء مستعارة"، المركز الثقافي العربي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عام ٢٠٠٦م.

٢. "الباب المفتوح"، المركز الثقافي العربي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عام ٢٠٠٦م.

مجموعة القصص "الباب المفتوح": نظرة عابرة

تمتزج تأويلات صور الآخر بصيرورة الذات في عالم منيف الإبداعي؛ فالعلامات المتعلقة بالآخر تتجدد في الأخيلة، والعلامات النصية؛ فالقص هنا يحتفي بالتداخل الفني بين الأنا، والآخر من جهة، وتعددية قوى النص، واتجاهاته التفسيرية من جهة أخرى.

رغم رحيل الروائي عبد الرحمن منيف في ٢٠٠٤م، إلا أن رفوف المكتبات العربية لم تتوقف عن اكتشاف وإعادة اكتشاف صاحب خماسية "مدن الملح". فإلى جانب الروايات والمجموعات القصصية المُعاد إصدارها، لم تنفك تصلنا نصوص تعود إلى المراحل الأولى لعهده بالكتابة وتُنشر للمرة الأولى. هي أعمال إذا لم تكن في أهمية أعمال أخرى له على غرار "مدن الملح" أو سواها، فإنها تلقي الضوء في شكل خاص على علاقته بأدواته السردية ومحاولاته إيجاد لغته وأسلوبه وبنائه الروائي، وتأتي لتضيف إلى السلسلة التي تشكل مساره الأدبي الحلقات الأولى في كل ما تنطوي عليه هذه الأخيرة من براءة الخطو الأوّل والتفتيش المتعثّر عن اللغة

والاجتهاد المرتبك لمدّ الموهبة الطرية بما يكفل لعودها الاشتداد. مجموعة "الباب المفتوح" القصصية الصادرة لدى "المؤسسة العربية للدراسات والنشر" و"المركز الثقافي العربي"، التي كُتبت قصصها بين ١٩٦٩ و١٩٧٠م، أي قبل إقدام منيف على نشر عمله الأول "الأشجار واغتيال مرزوق"[1] في ١٩٧٣م.

بين عامي ١٩٦٩-١٩٧٠م، كانت الفترة التجريبية للكتابة عند عبد الرحمن منيف، حيث كان مغرما بقراءة القصص القصيرة. فقد ألف مجموعة من القصص قسّمها إلى مجموعتين، وصدرت فيما بعد في كتابين منفصلين هما "أسماء مستعارة و"الباب المفتوح"، وهذه القصص كتبت قبل أي عمل روائي لمنيف. وكانت هذه القصص تعيش في عقله ووجدانه، وقد تعود بذورها لحوادث رآها بنفسه ولأشخاص عرفهم وعايشهم وتركت لديه ذلك الخدش الموجع. نشرها مرارا للعودة إليها لتكون بشكل يرضى عنه أكثر، لكن لم يجر عليها أي تعديلات أساسية لقناعته أنه إذا بدأ فستتغير نهائيا ولحرصه أن تترك كما جاءت في الكتابة الأولى، وضمن ظروفها. لقد قسّم القصص إلى مجموعتين ورتب تسلسل القصص في كل مجموعة ووضع عنوانا للمجموعة الأولى "أسماء مستعارة" و"الباب المفتوح" للمجموعة الثانية.

والمجموعة "أسماء مستعارة تشتمل على عشر قصص هي: أسماء مستعارة، قصة تافهة، خطاب العرش، المنكود، عرق... ونشرة أخبار، عالمان، عملة مزيفة،

---

1 https://aljaml.com/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%A8%20%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D8%AA%D9%88%D8%AD%20%D9%84%D8%B9%D8%A8%D8%AF%20%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AD%D9%85%D9%86%20%D9%85%D9%86%D9%8A%D9%81 retrieved on 03/08/2022.

ابتعدت الباخرة... كثيرا، البدء.. من النهاية، أكفان البلدية. أما الثانية "الباب المفتوح" فتتألف من إحدى عشرة قصة هي: الأيام الأخيرة... من آب، نهاية، طير ابن فوزان، صويلح، مزحة، الباب المفتوح، ا الحدود، كلمة حلوة، رفيق، مطعم المحطة، ربما لم تأت.

وقصص المجموعة الثانية تفهم عناوينها كلها مباشرة دون اجتهاد أو تأويل، ففي قصة "الأيام الأخيرة... من آب"، التي تدور أحداثها حول الراوي مأمون وصديقه راتب، فالأيام الأخيرة من آب علامة شؤم ونحس لمأمون، فكل الويلات والمصائب التي حلت به كانت في هذه الفترة الزمنية. وفي قصة "الباب المفتوح"، قصة ذاك الباب الذي يبقى مفتوحا وكأنه ينتظر قدوم أحد، فهو يترجم لدراما محزنة لم ألمحها من قبل في قصص منيف. وفي قصة "رفيق"، التي تتحدث عن رفيق الصياد وهو الكلب الذي يساعد صاحبه في إحضار الصيد. وباقي عناوين قصص هذه المجموعة واضحة وتفهم من النظرة الأولى للعنوان.

ومن الملاحظ أن قصص منيف هذه التي تحمل طابع الإيجاز والشفافية جاءت ناقدة للواقع العربي المر الذي نعيش فيه، فهي ذاك الرجل الذي يحاول ولو لمرة واحدة فقط أن يجلس قرب المدفأة في المقهى، في حين يجلس غيره قربها. وهي معاناة الإنسان العربي التي تتمثل في إبراهيم المنكود الذي لا يريد التشرد عن أرضه ووطنه، إلا أن الصدمات التي تلاحقه تقطه ليموت مسموما. وويلات العالم العربي ومشاكله تجري على لسان راوي منيف، الذي يترجم ألم الفراق والوداع وضياع الوطن. عناوين قصص منيف واضحة لا مجاز فيها، وهي تفسر نفسها بنفسها، ولا خلاف بين العنوان والقصة فهما خطان يسيران في اتجاه واحد. ونلحظ في عناوين هذه القصص البساطة في مفرداتها وجملها، بحيث لا تشكل عبئا ثقيلا على القارئ ولا تفتح له المجال لأي تأويل مغاير.

تعد هذه القصة "الباب المفتوح" أكبر قصص المجموعة من حيث الحجم، حيث جاءت في ست وعشرين صفحة تقريبا. كما أنها جاءت في ثلاثة أجزاء هي وقصة "نهاية"، وباقي القصص خالية من الأجزاء. وهذان السببان يؤهلان قصة "الباب المفتوح"، لأن تكون عنوانا للمجموعة. وجاء ترتيب هذه القصة في المجموعة الترتيب السادس، أي يوجد خمس قصص قبلها، وخمس قصص أخرى بعدها، وهي في الوسط من القصص كأنها باب مفتوح يفصل بين غرفتين.

وأيضا لابد أن لجمال العنوان وجرسه دورا كبيرا، فهذا العنوان يشكل إيقاعا غريبا وصوتا جذابا لدى القارئ، ولا نجد في العناوين الأخرى ما يصلح لأن يكون عنوانا آخر للمجموعة. عدا ذلك فقد جاءت العناوين في العصر الحديث رمزية مجازية، وهذا الأمر لا يتحقق بدون "الباب المفتوح"، فلو نظرنا إلى القصص الأخرى لوجدنا عناوينها واضحة ثابتة ليس فيها مجال للتأويل، مما يجعلها ضعيفة أمام اختيارها عنوانا للمجموعة.

وربما يكون منيف قد جمع بين عدة أسباب في اختياره هذه القصة عنوانا لمجموعته، وما نجده متشابها بين قصتي أسماء مستعارة و"الباب المفتوح" اللتين حملتا عنوانا للمجموعتين القصصيتين ثلاثة أمور هي: أنهما القصتان الأكبر من حيث الحجم، وتقسيمها إلى أجزاء ثلاثة، وجذب عنوانهما لدى القارئ. أما من حيث ترتيبهما، فقد جاءت قصة "أسماء مستعارة" الأولى بين القصص من أصل عشرة، أما قصة "الباب المفتوح فقد جاءت السادسة بين القصص من أصل إحدى عشرة. وهذا لا يثير إرباكا، فقصة "أسماء مستعارة جاعت الأولى، وقصة "الباب المفتوح جاءت الوسيطة بين القصص في المجموعة الثانية.

إننا إذاً حيال النص الحامل بذور النص الذي يليه والواعد بما هو أكثر أهمية منه في ذاته، النص الذي لن يُنشر إلا بعد زمن من التمرّس في الكتابة نصير فيه

أكثر تسامحاً لكن أيضاً أكثر ثقة بأنفسنا بسبب المكان الذي وصلنا إليه. من هنا، تحمل هذه القصص كل مواصفات المحاولات الأولى غير المكتملة الملامح والشروط الفنية، وتبرز فيها الموهبة التي تتلمّس خطواتها وتعيد التساؤل حول أدواتها وتفتّش عن لغتها، هذه العصية أبداً التي لا تنفك توهمنا أنها في المتناول.

من حيث التقنية، نلمس بدايةً سعي الكاتب الواضح للنفاذ الى الدوافع والنوازع التي تحرّك الناس وتحكم سلوكهم. فنراه لذلك يقارب موضوعاته، شخصيات وأحداثاً، لكن الشخصيات في شكل خاص، في حركة تتجه من الخارج الى الداخل، من دون أن تنجح دوماً في إيجاد طريقها في هذه المتاهة التي هي الذات الإنسانية. وإذ تبدأ حركة السرد وصفية شبه تقريرية أحياناً، أو سريعة ومباشرة في أحيان أخرى، تصيب قلب موضوعها من الجملة الاولى ولا تناور، فإنها تكتسي في كل مرة بشيء من الرومنطيقية المضمرة التي لا تعلن عن نفسها صراحةً إلا من خلال براءة الخطاب العام وبعض الغنائية التي لا تفرط في إظهار نفسها.

يعتمد منيف الإيقاع الروائي في قصص يمكن أن تشكل كل منها فصلاً مستقل العناصر من رواية أطول. فأسلوبه في التعامل مع العناصر السردية لا يخضع لأي نوع من الضغط أو التكثيف الذي يميّز القصة القصيرة عادةً، بل يكتفي الكاتب بإعلان الاستقلالية الدرامية لقصته محافظاً على وتيرتها العادية. من ناحية أخرى، لا تبدو القصة لديه تطوّراً درامياً يسير في شكل تصاعدي متمدداً أكثر كلما تغذّى من معطيات محيطة، بل هي حفرٌ ونبشٌ في لحظة سردية واحدة. ورغم بحثه عن الغريب والنافر والشاذ في الشخصيات والحوادث على السواء، إلا أنه يكفيه أحياناً حادث عادي واحد، على غرار حفيد يودّع جدته قبل سفره (قصة "الباب المفتوح")، أو موقف عرضي كأن لا تجد شخصياته مطعما تتناول فيه الغداء إلا مطعم المحطة (قصة "مطعم المحطة")، أو حتى شخصية هامشية مثل شخصية

الخوش في قصة "مزحة"، لينسج حولها وعليها صياغته "القصصية" ويحوك منها "قصة" تبدو في معظم الأحيان واثقة من انطلاقاتها أكثر من النهايات التي تنغلق عليها. وإذ يحتلّ أسلوب البورتريه مكانة مهمة في معظم القصص، تأتي بعض مطالعها لتذكّر بـ"كاراكتيرات" لابرويار من دون أن يكون لها النَفَس التهكمي ذاته، بل نبرة أكثر إنسانية تشير إلى الغرائبي، في شيء من التعاطف حياله.

لكنها البراءة أولاً والبراءة قبل أي موضوع آخر، ما يحرّك معظم أبطاله، الذين رغم تنوّع شخصياتهم وأعمارهم تجمعهم الروح الطفلية وهذه البساطة والرقة الداخلية التي يتمتعون بها والإحساس المرهف الذي قد يقترب من العطوبية، فضلاً عن أنفتهم الريفية والعلاقة العضوية التي تربطهم بالأرض والجذور حتى لو كانوا رحّلاً أو مجهولي الأصول. وفي معظم القصص تُروى الحوادث بعيون طفلية تسجل للعالم من حولها بكل الذهول والبراءة المعطاة لها، مكتشفة مفاهيم الحياة وقيمها ومعايير استقبال العيش فيها مثل أعواد طرية تقسو أكثر بعد كل تجربة.

ورغم الميل الغرائبي في شخصيات أبطاله وسلوكياتهم، إلا أن الكاتب لا يبالغ في هذا المجال محافظاً على قدر من الاتزان الذي يكفل واقعيتهم. أما هذه الواقعية فيستمدونها من دواخلهم أكثر من ارتباطهم بالمحيط المجتمعي الذي يتحركون ضمنه. ففي معظم القصص لا يبدو هذا المحيط واضح المعالم تماماً ومحدد الإطار، بحيث يكاد يقتصر في بعض الأحيان على إشارات سوسيولوجيا متفرقة، على غرار موقف زوجة "المستر ستيوارت" من العرب في قصة "الأيام الأخيرة من آب"، أو مشكلات صويلح مع الدولة والنظام الإقطاعي في قصة "صويلح"، أو حال العجوز نايف الهذّال المسلوخ عن أرضه في الجولان السوري في قصة "رسالة من وراء الحدود".

في هذه القصة الأخيرة يروي منيف على لسان بطله: "رفضنا أن نتحرّك لما

طلبوا منا. سألنا أين تريدوننا أن نذهب؟ ولدنا هنا. (...) أجبرونا على أن نرحل، حملنا الأشياء التي نستطيع حملها وتحركنا، لكن عيوننا لم تفارق الأرض التي تركناها. (...) في المدينة لا نستطيع العيش، كنا نريد أن نبقى على أطراف المدينة لكي لا يؤخرنا شيء عن العودة". هذا الموقف السلبي تجاه المدينة يبرز كذلك في قصة "صويلح" حيث يقدم منيف المدينة كمرادف للخيبة وللأحلام المخذولة، وإذ تؤثر شخصياته العيش عند أطرافها مهمَّشة ومنسية أملاً بالعودة ذات يوم إلى أرضها، نراها في انتظار هذه اللحظة تعيش مراوِحة في حزنها، هذه "الدودة" التي تقرض الإنسان من الداخل، كما يسميها بطل قصة "الباب المفتوح"، وإذا تمرّدت شخصيات مثل صويلح فإن تمردها لن يكون إلا مُغرقاً في عبثيته ومعدوم الصدى.

الخاتمة

تمثل بدايات منيف الكتابية حينما كان يهوى القصص القصيرة وتبين أن منيف كاتب مقتدر حتى لو اختزل كلامه في صفحات قليلة، هنا في بابه المفتوح كان يعرف كيف يجعلنا نهمش كل الأحداث لنبقى في أفكار القصص مشدوهين ببراعته في تضليلنا حينما يكون البطل حائراً، والحزن كان كالطبقة اللامرئية لتلك القصص، يكتب بشفافيةٍ رائعة. لكل من يهوى (منيف)-ككاتب هذه السطور- أنصح بهذه المجموعة القصصية التي تعكس التجارب الأولى لهذا الكاتب العملاق. قراءة هذه القصص، تمنح القارئ فرصة للتعرف عن كثب على عالم هذا الروائي وهواجسه الأولى وأسلوبيته في اقتناص اللحظة القصصية، مثلما تكشف عن بذرة أعماله الروائية اللاحقة.

المصادروالمراجع

- منيف، عبد الرحمن، أسماء مستعارة ط١. المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع. ٢٠٠٦م.

- منيف، عبد الرحمن، الباب المفتوح ط١. المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع. ٢٠٠٦م.
- القشعمي محمد، ترحال الطائر النبيل: عبد الرحمن منيف "ببليوغرافيا" ط٢. دار الكنوز الأدبيبة. بيروت، ٢٠٠٤م.
- دراج، فيصل، حوار مع عبد الرحمن منيف: التاريخ ذاكرة إضافية للإنسان، الكرمل، غ٦٣، ٢٠٠٠م.
- http://www.alriyadh.com/Contents/25012004/Mainpage/Thkafa_10009.php
- Jiad,Abdul-Hadi(February,5-2004). "Abdul-RahmanMounif". The Guardian (London). Retrieved April 23, 2010.
- http://www.kirjasto.sci.fi/munif.htm
- Burt, Daniel S.; (2004). *The Novel 100: A Ranking of the Greatest Novels of All Time*. New York: Checkmark Books. ISBN 0-8160-4558-5.
- http://www.al-bab.com/arab/literature/munif.htm
- http://ar.wikipedia.org/wiki/عبد_الرحمن_المنيف.
- Saudi Arabian Novelist Abdur Rahman Munif (Tamil), Journal-Ungal Noolagam (UGC listed journal in Tamil), May 2009, pp:12-16.